مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية

المجلد 16 العدد 1 (السداسي الأول 2024م)
ص. 39- 56

علم الله سبحانه في الخطاب القرآني، سورة آل عمران نموذجا

God's knowledge in the Qur'anic discourse Surah Al-Imran as a sample

أ. د محمد تمزغين
جامعة الجزائر1 بن يوسف بن خدة (الجزائر)
m.timezghine@univ-alger.dz

تاريخ الارسال: 2024/02/15 تاريخ القبول: 2024/03/11 تاريخ النشر: 2024/03/30

ملخص:

تناول المقال موضوع علم الله عز وجل وكيف تناوله الخطاب القرآني، من خلال سورة آل عمران، انطلاقا من إشكالية مفادها: ما دلالات ذكر علم الله عز وجل في سورة آل عمران وكيف تم تناول هذا الجانب في الخطاب القرآني؟ ويقصد البحث إلى بيان مجالات علم الله عز وجل كما جاءت في السورة وتجلية جوانب ذلك، مستعملا المنهج الوصفي لتتبع الموضوع في السورة الكريمة، والمنهج التحليلي لرسم معالم الخطاب القرآني عن علم الله عز وجل، خلُص المقال إلى أن أبرز مجالات ورود علم الله سبحانه هيذكر أهل الكتاب والمنافقين، وذكر المسيح ورسالته، وذكر غزوة أحد ونتائجها. وأن الخطاب القرآني عن علم الله عز وجل قد تميز بالكشف عن ذلكم العلم، كشفا عن الغيب وما تكن الصدور، أو تعريضَ الناس للابتلاء ليَظْهَر ما علمه الله في بواطنها.

الكلمات المفتاحية: علم الله؛ الخطاب القرآني؛ سورة آل عمران؛ الكشف؛ الابتلاء.

Abstract:

The article focused on the topic of God’s knowledge and how the Qur’anic discourse dealt with, through Surat Al-Imran. The research problem was: What does the mention of God’s knowledge in Surat Al-Imran indicate? How did the Qur’anic discourse exhibit this topic?

The article aims to explain the areas of God’s knowledge as stated in the Surah, and to identify its dimensions, using the descriptive approach to trace the issue in the noble Surah, and the analytical approach to draw the features of the Qur’anic discourse about God’s knowledge.

One of the most important results of the study is that God’s knowledge repeatedly appearedwith the People of the Scriptureand the hypocrites, Christ and his message, and the Battle of Uhud and its results. The Qur’anic discourse on God’s knowledgehasdistinguished by revealing that knowledge, revealing what lies within the breasts, or exposing people to trial in order to reveal what God knew within them.

Keywords: God's knowledge; Quranic discourse; Surat Al-Imran; Revealing; Testing.

1. مقدمة:

يمكن اعتبار موضوع العلم من الموضوعات البارزة للقرآن الكريم؛ بما هيأ الله لهذه الأمة من أسباب العلم من الوحي والمعرفة الكاملة الدائمة، ومن الدعوة إلى إعمال عالم الأسباب، والنظر السببي والحكمي في الخلق، وهو ما حوّل الأمة من أمة جاهليةٍ لا تقرأ ولا تكتب إلى أمة العلم وأمة الإحسان والشهود الحضاري.

وإن كان من علم فإنه من العليم الخبير، الذي يعلم ولا نعلم، ولا يحيط الخلق بشيء من علمه إلا بما شاء، فالذي يقرأ آيات القرآن الكريم لا يخطئه النظر إلى ذلك التداخل في الخطاب القرآني بين عالم الغيب وعالم الشهادة، فلا يجد فاصلا بين ذكر الآخرة والأولى، ولا انتقالا بين ذكر الله تعالى وبين تتبع قدرته في خلقه وبيان سننه.

وقد كان من تلك الصفات البارزة للمولى تعالى صفة العلم، فهو كامل العلم، وسع كل شيء علما، قد يتجلى علمه في مظاهر عديدة، ونتج عنه الكثير من اللوازم في حياة الإنسان؛ كالمراقبة والإحاطة والإجابة والقدرة والتدبير والجزاء...

لذلك فالبحث عن هذا الجانب له أهميته، من حيث الوقوف على آفاق علمه ومجالاته، والنظر في لوازم علمه، ومن حيث طريقة القرآن الكريم في خطابه عن علم الله تعالى، جمعا بين الغيب والشهادة، وبين العلم والعمل، وبين العمل والثمرة... ومن حيث أثر هذا الموضوع في فهم الكثير من موضوعات القرآن الكريم.

ومن السور التي اعتنت بموضوع العلم الإلهي سورةُ آل عمران[1]، إذ تكرار ذكره في السورة بشكل ملفت للانتباه وداع للنظر والاعتبار[2]، وجاء الربط بين علم المولى وبين جوانب عديدة واردة في السورة؛ مثل العلم بما في صدور أهل الكتاب والمنافقين، والعلم بحال عباد الله المتقين، والعلم بما سيقع من مواجهة بين أهل الحق وأهل الباطل، والعلم بثبات المتقين وزلة ضعاف الإيمان والمنافقين... وغيرها.

وقد سبق هذا المقال دراسات سابقة، كمقالة الباحث علي حفظ الله، بعنوان: اسم الله وصفته (عالم) بين الاستعمال اللغوي والدلالة القرآنية[3]، حيث تناول اسم الله تعالى "عالم"، وتتبّع وروده في القرآن الكريم، ورصد الجوانب اللغوية والنحوية في ذلك. وبالنظر إلى ما ذكر فتعتبر هذه الدراسة لغوية خالصة، لم تتناول الجانب الموضوعي لموضوع العلم الإلهي، وهو محل اهتمام المقال.

ومن الدراسات السابقة، مقال الباحث وضاح عامر عبد الباقي، بعنوان: علم الله تعالى في سورة الأنعام، دراسة موضوعية[4]، حيث تناولت الموضوع من خلال سورة الأنعام، فقسمت الموضوع إلى جانبين: علم الله تعالى بالظواهر الكونية، وعلم الله بالبشر، وتتبعت آيات سورة الأنعام لتستخرج مواضع ذكر العلم الإلهي.

ورغم كون هذا الدراسة قريبة جدا إلى هذا المقال، إلا أن الملاحظ عليها- مع اختلاف النموذج-هو أنها قسمت الموضوع تقسيما عاما ولم تبذل الوسع في الربط بين أقسامهن، كما لم تشتغل كثيرا بتجميع الدلالات المتعلقة بذكر علم الحق جل وعلا، وهو ما يسعى المقال لتجاوزه وبذل جهد أكبر في التناول الموضوعي.

أقرب دراسة سابقة إلى هذا المقال دراستان:

---

[1] انظر: باجودة، تأملات في سورة آل عمران، ص597

[2] انظر: مسعود، الانزياح والتضخيم، ص221

[3] مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، تبسة: جامعة تبسة، مج7، ع1، 2014م.

[4] مجلة كلية التربية الأساسية، العراق: الجامعة المستنصرية، مج26، ع106، 13 مارس 2020م.

الأولى هي دراسة الباحث علي عبد الكريم مبروك إبراهيم، بعنوان: بلاغة النظم القرآني في اصطفاء التعبير باسم العليم في سورة البقرة[5]، حيث قام بدراسة مواضع ورود اسم الله العليم في سورة البقرة، واستنتج مقامات لذكرها هي: قدرة الله تعالى على الخلق والبعث، والعقائد، والعبادات والشعائر، والأحكام الشرعية بأنواعها من وصية ونكاح وطلاق وبيع وشهادة، والحث على الإنفاق في سبيل الله.

وقد استفاد هذا المقال من تلك المقالة العلمية مع تركيزها الكبير على الجانب اللغوي البياني، بينما هذا المقال سيتجه اتجاها موضوعيا في دراسة الموضوع وربط ذلك بمنهج الخطاب القرآني في تناول الموضوع، إضافة إلى اختلاف السورة المدروسة.

والثانية هي دراسة الباحث الشغدري إبراهيم بن عباس، بعنوان: الثبات على الحق في سورة آل عمران، دراسة تفسيرية موضوعية[6]، وقد كان لهذه الدراسة أهميتها من حيث تحديد الموضوع العام للسورة، وهو -حسب الباحث- "الثبات على الحق"[7]، ومحاولة إبراز الترابط الموضوعي لآيات السورة، رغم عدم تناولها لموضوع العلم الإلهي مِن قريب أو بعيد ما يمثل فجوة في الموضوع أمام الذكر المتكرر للموضوع في مجال الدراسة.

ومن خلال ما سبق فيمكن تحديد أهداف هذا المقال في إبراز الجوانب المتعلقة بعلم العليم، والوقوف على الرابط بين تلك الجوانب وبين علم المولى تعالى في موضوعات السورة المختارة.

وقد استعمل البحث المنهجَ الوصفيّ في تتبع تلك الجوانب استقراء لمواضع ذكر الموضوع المدروس، والمجالات التي وردت فيها، كما استعمل المنهجَ التحليليّ للكشف عن جوانب علمه تعالى وإبراز الروابط التي تربطه بموضوع السورة العام، بما يوقف على منهج الخطاب القرآني في تناول موضوع علم الله في السورة.

وقد اقتضى البحث تقسيم المقال إلى محورين ومدخل، أما المدخل فعن موقع العلم الإلهي في الخطاب القرآني عموما، وأما المحور الأول فعن سياقات ذكر علم العليم في السورة، والمحور الثاني عن جوانب علم الحق جل وعلا كما جاءت في مجال الدراسة[8].

[5] مجلة الزهراء، مصر: جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، بنات، العدد 31، 2 أكتوبر 2021م.

[6] المجلة العلمية لكلية التربية، اليمن: جامعة ذمار، ع19، أكتوبر 2023م.

[7] انظر: المرجع ن، ص85

[8] لكثرة ذكر سورة آل عمران في عزو الآيات، فسيكتفى بذكر رقم الآية فقط بين معكوفين، فتكتب مثلا: [آ عمران: 15] هكذا: [آ: 15]

2.مدخل: موقع علم الله عزوجل في الخطاب القرآني عموما:

جاء الحديث عن العلم الإلهي في القرآن الكريم بشكل واضح، وبصور وطرق عديدة، فالموضوع متعلق بالله وتعريفه إلى الخلق، كما أنه يمثّل جانبا مؤثرا جدا في حياة المخلوقات؛ علما بخصائصها، وعلما بقدَرها وتدبيرها، وعلما بخفاياها وظاهرها، وعلما بمآلها، إضافة إلى العلم بما يصلح لها.

فمما يبرز علمه تبارك وتعالى أنه وَسِع علمه كل شيء؛ فلا تخفى عنه خافية، ومِن ذلك أنه يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها [الحديد:4]، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو [لقمان:59]، وأنّ عِلْمَ الخلق مهما كان حجمه ونوعه ودقته وإحاطته، ففوق كل ذي علم عليم [يوسف:76]، بل إنهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء [البقرة:255].

ووحي الله علامة على كمال علمه، وإرشاده لخلقه إنما هو لكمال علمه بهم، ألا يعلم من خلق [الملك:14]، وما من شيء في ملكوته إلا ويعلم حاله وماضيه ومآله "إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم" [يوسف:100]، يعلم مكائد الكائدين: "إنه عليم بذات الصدور" [آ:119]، ويعلم صدق الصادقين: "وكنا به عالمين" [الأنبياء:51].

وقد جاء ذِكْرُ علم المولى تعالى في القرآن الكريم في صيغة الوصف، فجاء في صيغة الفعل كما جاء في صيغة الاسم، ولصيغة الاسم خصوصية أشارت إليها فريدة زمرد بقولها: " أما الصيغ الاسمية، فإن الغالب منها جاء صفة لله واسمًا من أسمائه الحسنى: (عليم)، حيث وردت اثنتين وخمسين ومائة مرة (152)، ووردت مرة واحدة بصيغة المبالغة ضمن الضميمة الاصطلاحية (علام الغيوب)، وهو مؤشر يؤكد مرة أخرى على اختصاص الله بصفة العلم. ومن أهم خصائص هذا العلم الإلهي الذي تردد ذكره ضمن صيغة اسم الفاعل (عالم) إضافته إلى الغيب والشهادة، وهنا تكرر التعبير القرآني (عالم الغيب والشهادة) ثلاث عشرة مرة حتى صار ضميمة اصطلاحية لخصت حقيقة العلم الإلهي، وحددت موضوعاته بأوجز تعبير وأعجز أسلوب"[9].

[9] زمرد، فريدة، مفهوم العلم في القرآن الكريم.

كما جاء ذكر اسم العليم في القرآن منفردا ومعرفا في 32 موضعا، وجاء مجردا عن التعريف منفردا في 119 موضع، وجاء مقترنا باسم الله السميع في 41 موضعا يتقدم اسم السميع على اسم العليم، وجاء مقترنا باسم الله الحكيم في 35 موضعا، تقدم الاسم الحكيم في 28 موضعا، بينما تَقَدّم اسم العليم في 7 مواضع، وجاء اسم العليم مع اسم الواسع في سبعة مواضع، تقدم اسم الواسع فيها على اسم العليم، واقترن اسم العليم كذلك باسم العزيز في 6 مواضع تقدم فيها اسم العزيز.

وكل هذه الارتباطات تظهر ذلك التداخل بين العلم والعزة والحكمة والاستجابة ووسعة الرحمة والعلم.

ومن الأسماء التي اقترنت باسم العليم اسم الخبير في 4 مواضع تقدم فيها اسم العليم، وكذا اسم القدير في 4 مواضع، تقدم فيها اسم العليم، ومن تلك الاقترانات اقتران اسم العليم باسم الحليم في موضعين، تقدم فيهما اسم العليم، واقتران اسمه تعالى الشاكر باسم العليم في موضعين تقدم فيهما اسم الشاكر، واقتران اسم العليم بالخلاق في موضع واحد تقدم فيه اسم الخلاق، واقترن اسم العليم باسم الفتاح في موضع واحد تقدم فيه اسم الفتاح[10].

"وكما يبدو فأكثر الصفات والأسماء اقترانا بالعليم هي صفة الحكيم، ثم السميع، وفي ذلك دلالة على التقارب المفهومي بين العلم والحكمة، وبين العلم والسمع. ومن التعابير التي تكرر ورودها باستعمال لفظ العليم قوله تعالى: "وهو بكل شيء عليم"، وأيضا قوله: "عليم بذات الصدور"، "وهما تعبيران يشيران إلى خاصيتين من خصائص العلم الإلهي وهما: الإحاطة والشمولية، والعلم بما تخفيه الأنفس، وهما خاصيتان تماثلان ما دلت عليه ضميمتا: عالم الغيب والشهادة، وعلام الغيوب"[11]

هذا جانب من جوانب علمه سبحانه ورد في الخطاب القرآني، ولعل التركيز على هذا الموضوع في السورة المختارة سيهيئ للوقوف على مجالات ذكر العلم الإلهي وجوانبه ويعطي تصورا أدق وتتبعا أوضح.

[10] انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، معجم ألفاظ القرآن الكريم، وانظر: مبروك، بلاغة النظم القرآني في اصطفاء التعبير باسم العليم في سورة البقرة، ص4544-4545.

[11] زمرد، فريدة، مرجع سابق.

3.أولا: سياقات ذكرِعلم الله عزوجل في سورة آل عمران:

يمكن تقسيم سياقات الخطاب القرآني عن هذا الموضوع في السورة إلى: ذكر كفار أهل الكتاب والمنافقين، وذكر المسيح عليه السلام وأمه، وذكر غزوة أحد.

1.3الخطاب عن كفار أهل الكتاب والمنافقين:

ذُكِر العلم الإلهي أثناء مخاطبة أهل الكتاب والمنافقين والحديث عنهم، وقد دلّ على المعاني الآتية:

كمال العلم عند الله: فهو سبحانه يعلم وأنتم لا تعلمون: فمن ذلك ما جاء في محاججة أهل الكتاب على قولهم في إبراهيم عليه السلام بغير علم؛ بأنه يهودي أو نصراني! فالله يعلم وهم لا يعلمون [آ: 66][12]. فلا يعلم تمام العلم إلا هو؛ وما يعلم تأويل الوحي إلا الله، والراسخون في العلم منهم يؤمنون بالحق [آ:7]، وأن الأسلم للإنسان أن يرُدّ علم الوحي إلى مولاه وصاحبه، ويرد تأويل المتشابه إلى المحكم[13].

والله يعلم من يستأهل الفضل: فإن كان أهل الكتاب قد أنكروا أن يهدي الله قوما -من غيرهم- للحق، وأن يجعل الله الرسالة في قوم غيرهم، فإن الله واسع عليم، يعلم من يستحق فضله، فيتفضل على من يشاء بالهداية [آ: 73].

الإنباء بالغيب والخفي: فالله سبحانه ينبئ بالغيب، ومن الإنباء بالغيب بيان ما حصل في قصة كفالة مريم وإلقاء الأقلام والاختصام بينهم [آ: 44]، بما يبين نبوة المصطفى ﷺ. ويكشف ما في الصدور؛ كما كشف ابتغاء الذين في قلوبهم زيغ للفتنة بتأويل الوحي بغير الحق، وبما يخالف المحكم منه [آ:7]. وكشف موقف المنافقين المتحايلَ بين إظهار الإيمان وإبطان الحقد، فهو العليم بذات الصدور [آ: 119][14].

توَعّد أهل السوء منهم بما علم المولى فيهم: وقد جاء ذلك في خطاب أهل الكتاب بتوعّدهم على التولي عن الإيمان بالرسول، فالله بصير بالعباد [آ: 20]. وأنه أعلم بالمفسدين الذين تولّوا عن الإيمان بالمصطفى وألّهوا المسيح، والإعلام بالعلم هو توعد بالجزاء [آ: 63]. وقد جاء تهديد أهل

---

[12] انظر: باحمدان، براءة سيدنا إبراهيم عليه السلام من اليهودية والنصرانية، ع21، ص2.

[13] انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم 2/ 8.

[14] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 2/ 145.

الكتاب بعاقبة الكفر بالآيات والكيد للمسلمين في شكل متكرر، وأنه يشهد ما يعملون [آ: 98]. وأنه ليس بغافل عما يعملون [آ: 99]. كما جاء التوعد للمنافقين الذين يبخلون بما أوتوا من الفضل، فهم سيُطَوّقونه يوم القيامة ذلك بأن الله خبير بأعمالهم [آ: 180]

ومن المجازاة بما يعلمه الله في القلوب والأعمال أنه قد سمع أهل الكتاب الذين وصفوه بأفحش القول، فتوعدهم بجزاء الحريق، بما قدمت أيديهم دون ظلم [آ: 181-182]. كما جعل جزاء عدم الإيمان بِقَدَر الله حسرة في القلوب، والله بصير بأعمالهم [آ: 156][15].

والملاحظة العامة على هذا الخطاب أنه خطاب كشف للمكائد وما تخفيه الصدور، ومواجهة بالتهديد بالعقاب العاجل أو الآجل، وإبراز لحدود علمهم كفًّا لهم عن المجادلة بغير علم.

2.3 ذكر عيسى عليه السلام:

وقد جاء ذكر المسيح عيسى بن مريم نموذجا للمصطفَين، فمِن كمال علمه وإجابته لخلقه اصطفاؤه للكاملين مِن عباده، وجعلهم خير خلف لخير سلف [آ: 34]. ابتداء بتقبّله تعالى مِن امرأة عمران نذر حَمْلِها لعبادة الله؛ فهو السميع المجيب لدعائها العليم بحالها [آ: 35]، ولأنه العليم وحده فقد علم ما لم تعلمه أم مريم، من صلاحية مولودها لما هيئ له[آ: 36][16].

وترقيا بخلق مولود من أم بلا أب[17]، بتعليم المسيح الكتاب والحكمة [آ: 48]، وتعليمه أن ينبئ الناس بما يدخرون في بيوتهم وما يأكلون. مما يُظْهِر كمال علم المولى، وأنّ ما يجري على يد المسيح معجزة وآية على النبوة والمرسِل[18]، وأن الأمة المؤمنة من أهل الكتاب سيجازيها الله لفعل الخير دون كفران لسعيها، فالله عليم بالمتقين [آ: 115][19].

والملاحظة العامة على هذا الخطاب أنه خطاب عالم بالصالح والطيب من القلوب، واصطفائها وتأييدها ودفعها نحو فعل الخير وجعلها ابتلاء للظالمين.

[15] انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 2/ 104.

[16] انظر: الرازي، مفاتيحالغيب، 8/ 204.

[17] انظر: الزمخشري، الكشاف، 1/ 337.

[18] انظر: البقاعي، نظمالدرر، 4/ 393.

[19] انظر: أبو رمان، ثناء القرآن الكريم على من آمن من أهل الكتاب، ع3، ص139.

3.3 ذكر نموذج غزوة أحد:

كما جاءت غزوة أحد نموذجا للمتقين الصادقين، وابتلاء لِيَمِيزَ الخبيث مِن الطيب، فالله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء [آ: 05]، ومن ذلك آية لقاء فئتين فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة، ففيها عبرة لأولي الأبصار [آ:13]

فالله تبارك اسمه سميع لدعاء عباده عليم بحالهم حين غَدَوْا للجهاد [آ:121]، وأن الجهاد والابتلاء إنما كان ليتم التمايز ويظهر حُسنُ البلاء بالجهاد والصبر عند الابتلاء [آ:142]، ومِن تمام علمه جلّ ذكره إخباره بما يخفي أعداء المسلمين بدل ما يظهرون، وأن ابتلاء المسلمين كان لأجل التمحيص فهو العليم بذات الصدور [آ:154].

وقد أخبر الله بالحكمة من الابتلاء -وهو الأعلم بحال عباده ومستقبلهم-، -وما كان ليطلعهم على الغيب-، فالحكمة هي تميّز الخبيث من الطيب [آ:179]، وأنه لعلمه بسؤال عباده مستجيب لهم دعاءهم [آ:195]، وأنه مجازيهم الجزاء الأوفى.

والخلاصة أن علم الحق تعالى قد ورد ذكره في مواضع عديدة في السورة، في خطاب أهل الكتاب وخطاب المنافقين، وفي ذكر المصطفين كالمسيح بن مريم وفي بيان أحداث غزوة أحد وما صاحبها من ذكر المتقين والمنافقين والكفار، وما كان فيها من تمحيص.

وبعد ما تم ذكره، فما هي جوانب علم الله الواردةُ في السورة مما يمكن تشكيل نمط معرفي لكمال عمله سبحانه وتجلياته ولوازمه؟

4.المحور الثاني: جوانب علمه عزوجل كما جاءت في سورة آل عمران

يمكن الوقوف على جوانب محددة للخطاب القرآني والتي ارتبطت بالعلم الإلهي، من خلال السورة مجال الدراسة، ولعل أبرزها: علمه بالظواهر والبواطن، والكشف عن علمه؛ سواء بالإعلام أو بالابتلاء، والأثر المترتب عن ذلكم الكشف وهو الجزاء (أو الوعد والوعيد)، والإقبال على العمل الصالح واتخاذ أحسن المواقف مما حدث.

فأبرز تلك الجوانب هي: علم، وكشف، وأثر. كما يأتي:

1.4 كمال علمه عزوجل بأحوال الناس وبواطنهم:

فهو أنه سبحانه لا يخفى عليه شيء، وقد اتضح ذلك تصويره للأجنة في الأرحام كيف يشاء، مثل المسيح بن مريم، ومريم، ويحيى بن زكرياء، وكل واحد له تصويره الخاص. كما اتضح في العلم تمام العلم بتأويل الوحي، مقارنة بالراسخين في العلم فيعلمون ما يمكن معرفته. واتضح أيضا في العلم بما في الصدور: فقد أبطن اليهود مكرهم بالمسلمين[20]، كما أبطن المنافقون مكرهم أيضا فالله عليم بمكرهم[21].

وكمال العلم بحيث لا يخفى شيء أمر مهم يبثه الله في آيات السورة ليظهر الكمال الإلهي، والنقص البشري، كما يظهر نفاذ مشيئة المولى تعالى في ملكوته وحسن تدبيره، مع من آمن ومن كفر، ومن وعى ذلك ومن غفل عنه.

2.4 كشف لعلم الله عزوجل:

وإذا ظهر تمام علمه عز وجل، فإنه يظهر في مستوى ثان من الكمال الإلهي وهو الكشف عنه لخلقه ليتجلى لعباده تمام علمه سبحانه، فيُعْلِم اللهُ بما غاب عن البشر، ويكشف عن علمه في مواضع معينة، بطريقة ربانية هي الابتلاء ليظهر ما خفي.

1.2.4 الكشف بالإعلام عن الغيب:

فقد أمثلة الإعلام بما يعلمه سبحانه من الغيب، ما حدث في كفالة مريم، والمقصد من ذلك هو أن تكون علامة على نبوة المصطفىﷺ، فلم يحضر هذا المشهد أحد غير المشاركين فيه، ولا يعلم أحد بعدهم ما وقع حينها، فيأتي الإعلام بذلك ليظهر أن علم هذا لا يصل إليه بشر، بل هو علم العليم المليك[22].

كذلك الإعلام بخبايا اليهود في كيدهم للمسلمين، وخفايا المنافقين، والمقصد منه هو فضحهم ليكفّوا عن مكرهم[23]، وهو نوع من أنواع النصرة للمصطفىﷺ وللمسلمين، فلا يضرهم كيد اليهود ولا مكر المنافقين.

---

[20] انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 2/ 30.

[21] انظر: البقاعي، نظم الدرر، 5/ 40.

[22] انظر: السمرقندي، بحر العلوم، 1/ 213.

[23] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 8/ 258.

2.2.4 كشف بابتلاء العباد ليظهر ما في البواطن:

وقد سمى الله هذا النوع من الكشف: علما، ونسبه إلى نفسه سبحانه، "ليعلم الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين" [آ:143]، و"ليعلم المؤمنين ويعلم الذين نافقوا" [آ:166-167]، و"ليعلم الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء" [آ:140].

والمقصود به الإعلام، فالله بكل شيء عليم، فلا حاجة له ليعلم؛ حاشاه، وإنما الناس هم مَن يحتاج إلى إظهار ما بطن[24]، والله برحمته يُظهر ذلك بالإخبار به، كما يُظهره بابتلاء الخلق فتظهر بواطنهم، فالعلم هنا هو الكشف عن طبائع الناس خبيثهم وطيبهم[25]، فيكون الابتلاء لِيَمِيز هذا عن ذاك، ولا يتميزون إلا بالابتلاء الميداني[26].

وقد ظهر هذا النوع من الكشف -أي ما علمه سبحانه في خلقه- في ابتلاء أهل الكتاب بعيسى عليه السلام[27]، فآمن به الحواريون وكفر به عامة أهل الكتاب، فأخفقوا في الابتلاء؛ بين مؤله لعيسى وبين ناقم عليه وواصف له بالسحر وساع لقتله.

وهو نفس الموقف من ابتلاء اليهود بالنبي محمدﷺ من غير قومهم، فاعترضوا على ذلك رغم انتظارهم الطويل لنبي آخر الزمان. فاشترطوا له القربان وعلامة قبول القربان، وطلبوا منه المعجزات، وكادوا له مكايد كثيرة.

وكذلك ما كان من ابتلاء المسلمين بما حدث في غزوة أحد، وما نتج عن ذلك من الكشف عن باطن المنافقين، كما في قولهم "لو أطاعونا ما قتلوا" [آ: 168][28]، فهو أعلم بما يكتمون، وبالمقابل كان كشفا عن باطن المتقين الذين ما وَهَنُوا ولا ضَعُفُوا ولا استكانوا[29]. وبين هؤلاء وأولئك من درجات في الإيمان قوة وضعفا[30].

---

[24] انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 1/ 514.

[25] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 4/ 162.

[26] انظر: المرجع ن، 4/ 178.

[27] يقول ابن عطية في تفسيره للآية: "وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون" [الفرقان: 20]: "أخبر عز وجل أن السبب في ذلك أن الله تعالى أراد أن يجعل بعض العبيد فِتْنَةً لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر... والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس الكفار في عصره". المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 4/ 205.

[28] انظر: عبود، أسباب الهزيمة والهوان والضعف، كما بينتها سورة آل عمران، ع43، ص16.

[29] انظر: رشيد رضا، تفسير الحكيم، 4/ 141.

[30] لبيان تجاوزات ضعاف الإيمان وأخطائهم في غزوة أحد، انظر: عبد الوهاب، عتاب المؤمنين في غزوة أُحد كما تصوره سورة آل عمران، مج10، ع1، ص80.

وقد ذُكر جانبَا الكشف عن العلم الإلهي معا -إخبار الله وابتلاء الله- في غزوة أحد، حيث يقول الحق جل وعلا: "ما كان الله ليذكر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء" [آ: 179]، فكأن المسلمين رغبوا أن يخبرهم المولى تعالى بخبر أُحُدٍ، ولكن الله لم يرد ذلك بل أراد أن يبتليهم لتظهر لهم الحقيقة جلية في الواقع فيزيدهم بالله ورسوله إيمانا[31].

ويمكن تصوير الكشف عن علم المولى لخلقه بأنه: جعل الغيب مرئيا عندهم رأي العين، أي إن العلم صار مشاهدة بعد أن كان تصورا أو استنتاجا، وهو ما يظهر قيمة هذا الكشف، فإذا كان المتقون يتصورون أو يستنتجون كيد المنافقين واليهود، من خلال مؤشرات وتصرفات، ولكن غزوة أحد قد حولت النظري إلى ضروري، والمتصور إلى المشاهد بالعين فلا شك فيه ولا مرية.

وإذا كان المسلمون يعتقدون بأن الله ناصرهم، ويعلمون بأن النصر باتخاذ الأسباب والتوكل على رب الأسباب، فإن وقعة أحد كانت مشهدا واقعيا أورث فيهم العلم التام بأن اتخاذ الأسباب ضرورة فلا مجال لتنازع ولا فشل ولا وهن ولا ضعف.

ومن خلال تجربة عملية دخل فيها المسلمون فتحققوا أن الله على كل شيء قدير وأن ما أصابهم إنما هو من عند أنفسهم، ومصداق ذلك قوله عز وجل مشيرا إلى تمام هذا العلم بقوله: "ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون" [آ: 143]

وكذلك بنو إسرائيل، فإذا كان المتقون منهم يؤمنون بالله وقدرته وعلمه وحكمته ونصرته غيبا فإنهم برؤيتهم للآيات ازدادوا يقينا لأنها رأي العين، كما كانت تلك الآيات قاطعة بأن خالقها هو الإله وصاحبها هو الرسول الذي ينبغي أن يُطاع، فرفضهم الإيمان بالمسيح وبالمصطفى الخاتم قد كان بعد إقامة الحجة وتمام العلم بأنه الحق وأنهم على باطل.

وقد أشار مصطفى مسلم إلى قريب من هذا المعنى فقال: "مقصد مهم امتازت به هذه السورة الكريمة؛ وهو المقارنة بين ظواهر الأمور والمتعلقين بها، وحقائق الأمور وعاقبها... وأحسب أن هذا المقصد هو من الأغراض الأساسية في سورة آل عمران"[32].

وسيتضح هذا أكثر في العنصر الموالي وهو أثر الكشف عن علمه سبحانه.

---

[31] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 4/ 177.

[32] التفسير الموضوعي لسور القرآن، 1/413-414.

3.4. أثر الكشف عن علمه عزوجل:

تتجلى آثار العلم الإلهي في جوانب عديدة، منها أن ذلك الإعلام أو الابتلاء للمتقين يورث بصيرة وعبرة فلا يثقون في أعدائهم ولا يتخذون منهم أولياء، ولِيقْدِموا على العمل الصالح والثبات على الحق ونصرته، كما أن من آثار ذلك فضح أعداء الأمة وإلزامهم والكف عن كيدهم، وقد تكون فرصة للتراجع والعودة إلى الحق.

كما أن من نتائج الكشف عن علمه عز ذكره الجزاءَ على الأعمال بناء على ما ظهر من الخفايا وتحقق من السرائر والنوايا، توعدا أو وقوعا.

لذلك فيمكن تقسيم آثار علمه عز وجل إلى ثلاثة جوانب: التزام بالحق، وكف عن المكر، وجزاء.

1.3.4 التزام الحق:

والمقصود بالتزام الحق أن يُقبِل التقي على ربه تقربا وعلى دينه التزاما ونصرة، بعد ما تبينت له النوايا وانكشفت له السرائر، فيزداد ثباتا على الحق. في ثلاثية وردت في السورة هي الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فمن الإيمان: الاعتصام بالله، والقنوت له، واتباع الرسول الخاتم، والإيمان بكل الرسل دون تفريق بين أحد منهم... ومن المعروف: الدعوة إلى الحق، والجهاد في سبيله، والإنفاق مما نحب، والصبر لما نلقاه في سبيله، والاعتبار بما حدث، والثبات عند الشدائد، والاستغفار لما يبدر من أخطاء. ومن المنكر: النهي عنه، وتجنبه: من النفاق، والخداع، والفرار يوم الزحف، وإرادة ثواب الدنيا دون ثواب الآخرة، والغل في المعارك، وعدم اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين...

2.3.4 كف الأعداء عن مكرهم:

وهو أثر من آثار الكشف عن العلم الإلهي، فلعل أبرز ثمرة لكشف الله عن مكر أهل الكتاب ومكر المنافقين هي أن يكفوا عن مكرهم، فإذا فضحت مكائدهم اضطربوا وهمدت حركتهم، كما هو الحال مع النصارى الذين كانت المباهلة حاجزا لهم عن التغطرس والاعتراض على الحق[آ: 63].

ولما أظهر الله نية اليهود أن يفتنوا المسلمين [آ: 72-73]، أورث نفورا لدى المسلمين منهم، وكفى بذلك أثرا[33]. وهو الأمر نفسه مع المنافقين، حين تأليبهم الناس على الرسولﷺ[آ: 186]، وتوليهم عن الزحف يوم أحد [آ: 145]. فكَشْفُ مكائدهم حقيق بأن يُبْعِد المسلمين عنهم فلا يتولوهم[34].

3.3.4 المجازاة:

وهو نتيجة الابتلاء، فإذا امتاز الخبيث وظهر للناس فقد حقّت عليه العقوبة لخبثه، وإذا تميّز الطيب فقد استأهل الأجر لطيبته، وكلا الموقفين بلاء، فالله ابتلاهم فأبلوا بلاء حسنا أو بلاء سيئا. والجزاء قد يكون وعدا ووعيدا في المستقبل أو حالا واقعا حين نزول تلك الآيات.

1.3.3.4 الجزاء الحاضر:

فمن الجزاء الواقع الحالّ: جعل عدم الإيمان بِقَدَر الله حسرة في قلوب المنافقين، والله بصير بأعمالهم [آ: 156]، وقد ظهر موقفهم في التولي عن الجهاد، وعَرَفَهُم المسلمون فنفروا منهم وسقطت الثقة فيهم، وهذا من صور الخزي والجزاء الذي تكبدوه بعد ظهور بواطنهم في غزوة أحد.

وبالمقابل، فالله يصطفي الكاملين من عباده، ويجعلهم خلفا عن سلف [آ: 34]، جزاء لهم لكمالهم وصفاء طواياهم وحسن خلقهم، كما أن هدايته عز وجل فضل منه يتفضل بها على من يشاء فالله واسع عليم [آ: 73]. وقد تفضل بها على المصطفى لكمال خلقه، فالعبرة بحسن العمل وسلامة الصدر، وأن الله يؤتي كل ذي فضل فضله.

ومن صور الجزاء الحال ابتلاء الله لعباده بالغم الأعظم وهو تصور وفاة الرسولﷺ، ثم أزاله بأن المصطفى حي، فزال معه أي غم آخر وهو نكسة أحد وما أصابهم حينها، فيهون كل شيء على أن يصاب الرسولﷺ، وعلّل المولى ذلك بدفع الحزن عن المؤمنين [آ: 153].

وأن من استشهد منهم فهو من الأحياء عند الله بما علم فيهم، فلا تحسبوهم أمواتا [آ: 169] وهو من كمال الجزاء، والملاحظ أن هذا الجزاء حال من جهة كما تصرح الآيات، ووعد بتمام الجزاء في الآخرة.

---

[33] انظر: القاسمي، محاسن التأويل، 2/ 334.

[34] انظر: الشوكاني، فتح القدير، 1/ 431

2.3.3.4 الجزاء الموعود:

وخلاصة هذا الجزاء الموعود أن الله عز وجل يذكّر الناس بعلمه بأفعالهم وبواطنهم وتصرفاتهم، ويترتب عن العلم بذلك أنه سيجازيهم لأنه لا يعجزه شيء، فيَعِدُ المتقين بكل خير ويتوعّد الكفار بكل سوء.

وقد جاء الربط بين علم المولى بتصرفات الناس وبجزائهم في أنه تعالى يعلم ما يبدون وما يخفون وأن كل نفس ستجد عملها يوم القيامة من سوء أو خير، وأن الله يحذرهم نفسه. [آ: 31]، ويأتي الوعد بالجزاء في الآخرة بالدرجات للمتقين والدركات للكافرين، حتى يتمايز الناس في جزائهم تبعا لتمايزهم في مواقفهم وأعمالهم وبواطنهم، ذلك بأن الله بصير بأعمالهم مؤمنهم وكافرهم [آ: 163].

5- مخطط العلم الإلهي كما جاء في سورة آل عمران:

يمكن تقريب الجوانب السابقة في المخطط الآتي:

علم	كشف	أثر
كمال علم الله	بالإعلام بالغيب والخفي	بالتزام الحق
نقص علم الإنسان	بالابتلاء العملي	بكف المكر
		بالجزاء وفق العلم

خاتمة:

تجلى علم الله عز وجل في سورة آل عمران بصور كثيرة، حيث ورد في مجالات متنوعة أبرزها هي ذكر أهل الكتاب والمنافقين، وذكر المسيح ودعوته، وذكر غزوة أحد ونتائجها. ومن أهم الجوانب التي ارتبطت بذكر علمه سبحانه في الخطاب القرآني في السورة مجال البحث: إبراز كمال علمه تعالى بالظواهر والبواطن، والكشف عن علمه عز وجل، والأثر المترتب عن ذلكم الكشف.

وقد تميز الخطاب القرآني عن علم الحق جل وعلا بعدم الوقوف عند إبراز كمال علمه سبحانه- رغم أهمية ذلك-، بل انتقل إلى الكشف عن ذلكم العلم، سواء بالكشف عن الغيوب وما تكن الصدور، أو تعريض الناس للابتلاء ليَظْهَر ما علمه الله في بواطنها.

يمكن النظر إلى ذلكم الكشف على أنه ترقية للإنسان من حال التفكير والتأمل النظري إلى درجة المعاينة والرؤية الواقعية، وهو نوع من التعليم الرباني للإنسان.

قائمة المصادروالمراجع:

1. باجودة، حسن محمد، تأملات في سورة آل عمران، السعودية، النادي الأدبي الثقافي، دط، 1992.
2. باحمدان، حنان محمد سعيد، براءة سيدنا إبراهيمﷺ من اليهودية والنصرانية، دراسة تحليلية للآيات (65-67) من سورة آل عمران، مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية، كلية الآداب، جامعة كفر الشيخ، مصر، ع21، يونيو2019م.
3. البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، دط، دت.
4. البيضاوي، عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تح محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1418 هـ
5. الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420 هـ
6. رشيد رضا و محمد عبده، تفسير الكتاب الحكيم، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1990م
7. أبو رمان، جمال عبد الرحيم صالح، ثناء القرآن الكريم على من آمن من أهل الكتاب دراسة استقرائية موضوعية في سورة آل عمران، مجلة دراسات، الشريعة والعلوم القانونية، الجامعة الأردنية، الأردن، مج50، ع3، 2023م.
8. الزمخشري، محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1407 هـ
9. زمرد، فريدة، مفهوم العلم في القرآن الكريم، موقع ميثاق الرابطة، تاريخ الزيارة: 2023/11/25م، http://www.mithaqarrabita.ma/%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D9%85-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A2%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%B1%D9%8A%D9%85
10. أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، دط، دت.
11. السمرقندي، نصر بن محمد، بحر العلوم، تح محمود مطرجي، بيروت، دار الفكر ،دط، دت.
12. السمين، أحمد بن يوسف الحلبي، الدر المصون، تح أحمد محمد الخراط، دمشق، دار القلم، دط، دت.
13. الشغدري، إبراهيم بن عباس، الثبات على الحق في سورة آل عمران، دراسة تفسيرية موضوعية، اليمن: المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة ذمار، ع19، أكتوبر 2023م.
14. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، دمشق وبيروت، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، ط1، 1414 هـ
15. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط1، 1984م.
16. عبد الباقي، محمد فؤاد، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مصر، دار الكتب المصرية، دط، 1364هـ.
17. عبد الباقي، وضاح عامر، علم الله تعالى في سورة الأنعام، دراسة موضوعية، العراق، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، مج26، ع106، مارس 2020م.
18. عبد الوهاب محمد سليم، عتاب المؤمنين في غزوة أُحد كما تصوره سورة آل عمران، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ، مصر، 2017م، مج10، ع1.
19. عبود، ماجد فيصل، أسباب الهزيمة والهوان والضعف، كما بينتها سورة آل عمران، مجلة كلية العلوم الإسلامية، بغداد، ع43، أيلول2015م.
20. ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1422هـ

21. علي حفظ الله، اسم الله وصفته (عالم) بين الاستعمال اللغوي والدلالة القرآنية، تبسة: مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة تبسة، مج7، ع1، 2014م.
22. علي عبد الكريم مبروك، بلاغة النظم القرآني في اصطفاء التعبير باسم العليم في سورة البقرة، مجلة الزهراء، مصر: جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، بنات، العدد 31، 2 أكتوبر 2021م.
23. القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، تح: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ
24. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تح سامي بن محمد سلامة، المدينة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ
25. مسعود باوانپوري، الانزياح والتضخيم في سورة آل عمران، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، بابل، بغداد، شباط 2018م، ع37.
26. مسلم، مصطفى، التفسير الموضوعي لسور القرآن، الشارقة، جامعة الشارقة، ط1، 2010.